

## التداخل النصي في الصورة في كتاب الفصوص لصاعد البغدادي الأستاذ الدكتور: أ. د. صادق جعفر عبد الحسين الباحثة: منال معن حوذان جامعة ذي قار/ كلية الآداب: قسم اللغة العربية

### ملخص:

إن من أهم العناصر الأدبية التي تميز الشعر عن بقية الفنون الأدبية عنصران هما: الموسيقى والصورة، إذ ذهب معظم الباحثين الى الشعر هو عبارة عن صور جسدت وقائع جوهرها التعبير المميز<sup>(١)</sup>، إذ لها أهمية كبيرة في الشعر، فتعدّ أحد سمات العمل الادبي ولا يخلو أي عمل ادبي من سمة التصوير، وللصورة أهمية كبيرة عند النقاد قديماً وحديثاً، إذ أول من التقت اليها في تأريخ النقد العربي الجاحظ (ت٥٢٥)، إذ قال: ((فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير))<sup>(٢)</sup>. وبتطور حركة النقد العربي نجد كثير من النقاد العرب أهتموا بالصورة، وأصبحت جزء لا يتجزأ من مؤلفاتهم منهم عبد القاهر الجرجاني (ت٥٤٧)، إذ قال فيها: (إن من الكلام ما هو شريف في جوهره، كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجُلُّ المعول في شرفه على ذاته، وأن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض، وأثر الصنعة باقياً معها لن يبطل)<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من الاهتمام الكبير بالصورة، إلا أن النقاد لم يدرجوا لها دراسة مستقلة بذاتها، لذلك يمكن القول أن الصورة انبثقت على نحو متميز مؤخراً عندما حدث تواصل بين الثقافتين العربية والغربية. لذا نرى قدامة بن جعفر (ت٥٣٣٧)، لا يخرج بجديد، إذ سار على نهج الجاحظ في ترجمة مفهوم الصورة إذ قال: ((إذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيهما من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة))<sup>(٤)</sup>.

بينما نجد الصورة عند أبو هلال العسكري (ت٥٣٩٥)، تحمل صيغة بلاغية إذ قال: (البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)<sup>(٥)</sup>، بينما ذهب الزمخشري (ت٥٣٣٨)، الى استعمال عدة مصطلحات مثل التصوير، والتمثيل، والتخييل في الأداء الصوري، والمعاني عنده نوعان: المعاني الحقيقية، والمعاني المفروضة المتخيلة<sup>(٦)</sup>. وألح ابن الاثير (ت٦٣٧)، على الجانب البصري في المشاهد الصورية، أي تشبيه صورة حسية بأخرى حسية مثل قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾<sup>(٧)</sup>، وتشبيه معنى بصورة مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>(٨)</sup>. وعلى الرغم من أن النقاد القدماء لم يعيروا أهمية خاصة للصورة، ولم يدرسوها في مؤلفاتهم، إلا أنهم وظفوا أنواع الصورة الفنية في كتبهم النقدية والبلاغية فوجد دراسات كثيرة للتشبيه والاستعارة على وجه الخصوص.

على الرغم من كثرة الدراسات العربية والغربية حول الصورة، فإن النقاد ما زالوا مختلفين في تحديد مفهومها، وذلك لتعدد دلالات الصورة في أنواعها، وإذا انتقلنا الى شروحات النقاد المحدثين في الصورة،

فقد حاول الناقد سيسيل دي لويس أن يحيط تعريف شامل للصورة الشعرية عندما قال: (رسم قوامة الكلمات)<sup>(٥٠)</sup>، ثم قام بتفصيل تعريف أكثر دقة بنظره عندما قال الصورة الشعرية هي: (صورة حسية في الكلام، ومجازية في التعبير مع عاطفة إنسانية مشحونة بإحساس مؤثر تنساب نحو القارئ)<sup>(٥١)</sup>. ويرى الدكتور عز الدين إسماعيل أن الصورة ماهي إلا: (تركيبية عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتسابها إلى عالم الواقع)<sup>(٥٢)</sup>، بعض النقاد ربطوا مفهوم الصورة بمنهج جمالي، لأنهم عدّوا أن الفن الصوري هو أدراك جمالي للواقع الذي تشكل منه<sup>(٥٣)</sup>، وعلى هذا الأساس فإن كتاب الفصوص يزخر بعدة مقطوعات شعرية لكثير من الشعراء اللذين تغنوا بموضوعات متنوعة تناولت الجانب الصوري بأبهى صورته وتداخلت مع اشعار آخر لشعراء تناولوا نفس الموضوعات من أمثلة ذلك نجد صورة (المرأة)، جاءت على عدة صور منها القوية، الضعيفة، الجميلة، جلسة الدار ... الخ من الصور.

ومن التداخلات النصية في كتاب الفصوص لصورة المرأة المكنونة\* في البيت قول لكثير عزّة<sup>(٥٤)</sup>:

(الطويل)

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيْرَةٍ  
عَيَّبْتِ قَصِيْرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرُدْ  
إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ  
قِصَارَ الْخَطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرِ

جاءت صورة المرأة مشتركة المعنى بين المرأة قصيرة القامة، وبين المرأة القاصرة على بيتها، وهو المعنى المطلوب في النص الشعري، فقصده الشاعر الزوجة الممتنعة عن الخروج من دار زوجها، أي أنها مصونة في دارها لا تخرج منه، نلاحظ الشاعر هنا يضع صورة إيجابية لرسم عشيقته المصونة في حجرتها، وتفاعل قلبه تجاهها من خلال توجيه الكلام بشكل مباشر بضمير المخاطب (انت)، بداية لشعوره تجاه محبوبته، ثم اتبعها بالفعل (حببت)، ليحمل كل معاني الحب التي عجزت عنه قصيرات الخطأ عنه، ثم ينتقل الشاعر ليرسم صورة كلها تقدير واحترام لكل امرأة قاصرة على قبتها ويستعمل أسلوب التضاد بين (قصيرات الحجال، قصار الخطا)، ثم يجيء كناية عن المرأة الغير مصونة هي ذات الخطوات القصار. والصورة مثلها نجدها متداخلة مع نص الشاعر امرئ القيس<sup>(٥٥)</sup>:

(الطويل)

مَنْ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ، لَوْ دَبَّ مَحْوَلٌ  
مِنْ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَتْرَأَ

فالشاعر رسم الصورة ذاتها، كون المرأة مقصورة على بيتها المتحجبة الى زوجها، تقصر نظرها عليه، ولا تطمح بالنظر الى غيره من الرجال حباً به وتتعفف منها، وهي من الصفات الجميلة التي شاد بها العرب في اشعارهم، مستمدين خيوطها من اية الذكر الحكيم من قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾<sup>(٥٦)</sup>.

وجاءت صورة المرأة الصالحة، في كتاب الفصوص، ومنه قطعة لامرأة توصي أبنيتها بزوجها وهي تقول<sup>(٥٧)</sup>:

(الرجز)

بُنَيَّ إِنْ نَامَ تَنَامِي قَبْلَهُ  
وَأَكْرَمِي تَابِعَهُ وَأَهْلَهُ  
وَلَا تَكُونِي فِي الْخِصَامِ مِثْلَهُ  
فَتَخْصِمِيهِ فَتَكُونِي بَعْلَهُ

جاءت صورة المرأة الصالحة بوصية اوصتها لابنتها، من خلال النصح والإرشاد، بالمبادرة للعمل الصالح تجاه زوجها، فهي صورة ذات معاني سامية تدل على الأيمان العميق من الله يجعلها امرأة صالحة بعيدة عن ذميم الاخلاق توجيهه، وتنتهي عن أمور سيئة فيها، وتقول لها اذا اخذت بهذه النصائح تكونين زوجة حسنة العشرة. ونجد مثله قول لأعرابية توصي ابنتها قائلة<sup>(١٨)</sup>:

كوني له زوجاً ثريه حناتها	إن الحنانَ بغيرها أوهــــــــــــــــام
كوني شريكته الأمانة دائماً	إن الأمانة للزواج قــــــــــــــــوام
ثقة الشريك ضرورة حتمية	فقدائها لكليهما هــــــــــــــــدام
فلتبق رُوحك ما يطيب لروحه	ظُلٌّ مديهُ طيبٌ وطعــــــــــــــــام

نقلت الشاعرة صورة واضحة لبيان الحالة الزوجية، وصورة المرأة الذكية هي التي تتعامل بحكمة مع كل الأبعاد فتحتويه من جميع الجوانب، ثم تنتقل الى وضع المرأة في صورة السمع والطاعة، وتبين أن الالتزام لهذه النصائح تخلق جو من الاستقرار والراحة. فرسم الصورة بين النصين جاء على سمة الأطناب هي السمة الغالبة في الحديث

ومن النصوص التي جاءت في الفصوص، وصف المرأة بصورة المرأة الجميلة العفيفة صاحبة البيت في قول ابن مقبل<sup>(٩٩)</sup>:

(البيسط)

بلْ مَا تَذَكَّرْخ مِنْ كَأْسٍ شَرِبْتَ بِهَا	وَقَدْ عَلَا الرَّأْسَ مِنْكَ الشَّيْبُ وَالصَّلْغُ
مِنْ أُمَّ مَثْوَى كَرِيمٍ هَابَ نِمَّتْهَا	إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى عِلَاتِهِ (*) وَرَعُ (*)
حَوْرَاءُ بِيضَاءُ مَا نَدْرِي أُمِّكِنْتَا	بَعْدَ الْفَكَاهَةِ أُمَّ تَابَــــــــــــــــى فْتَمْتَعُ

الشاعر هنا رسم صورة يتذكر فيه أيام صباه، ولهوه مع النساء الجميلات، فأعاده ذاكرته الى ماضية وقد أخذ منه الشيب بعد زمني بين الحياة الماضية والحاضرة، أعطاه تأكيد على ذاته وذكر إيجابياته وسلبياته، ثم انتقل الى بيت آخر ليبدأ صدر البيت بأسلوب بلاغي في اطلاق كناية عن المرأة بلفظ (أم مثنوى)<sup>(\*)</sup>، فهي كناية عن أم المنزل أو البيت، ويتذكر أيام شبابه والنساء المهيبات، وايام صباه، ورسم صورة جميلة عن المرأة، ثم ينتقل الى ذكر اللون الأبيض ليشبهها بالبحور لصفاته وطهارته، صاحبة العيون الشديدة البياض في بياضها وشديدة السواد في سوادها، فجاءت الصورة معبرة عن المتعة والفكاهة التي ينشدها الشاعر أم عكس ذلك، فنجد في ذلك تضاد سلبي بين الرفض والتمكين من خلال الفعلين (تمكننا، تأبى)، وهنا تظهر قدرة الشاعر في رسم الصورة الفنية لإحياء خاص لكل سامع، فنشعر كأنها نابعة من صميم شعورنا لا من الشاعر<sup>(١٠٠)</sup>، ومثلما رسم الشاعر صورة جميلة للمرأة يتذكر فيها أيام صباه، نجد موضع آخر للشاعر بشر بن خازم يتداخل فيه ويستذكر الشيب لا يمنعه من اللهو والتمتع مع النساء الجميلات فقال<sup>(١١١)</sup>:

(الوافر)

فإن يكُ قد نأتني اليوم سلمى	وَصَدَّتْ بَعْدَ الْإِفِّ عَن مَشْيَبِي
فقد ألهو إذا ما شئت يوماً	إلى بياض آتسأة لغوب

فالشاعر هنا يستذكر صورة (الشيب)، بصفة حسية وهي إصراره على موقفه من أن الشيب لا يمنعه من التمتع واللهو من التقرب والوصول الى رغباته الصبيانية، على الرغم من أن المعروف من هجران النساء للعاشق في الشعر هو الشيب.

فدلالة الشيب تعطي صورة حول التحول الزمني، ثم ينتقل الشاعر الى بيت القصيدة الثاني، ليلق برغبته هو فقط؛ أي ارادته في قوله (إذا ما شئت)، وأختار من الألوان ما يجسد صورة النقاء والطهارة وهذا ما تجده في النص السابق من اختيار الألوان البيضاء التي تعطي صورة الجمال من النساء الصغيرات الراغبات.

ومن صور المرأة في كتاب الفصوص، نجد صورة المرأة الذميمة في قول لأعرابي عند دخوله الى الحجاج<sup>(١٢٢)</sup>:

(الطويل)

فَيَا لَيْتِي وَاللَّهِ لِيَوْمِ أَتْرُوجُ	تَزَوَّجْتُ أَبْغِي فَرَّةَ الْعَيْنِ أَرْبِعَا
تَزَوَّجْتُ بَلَّ يَا لَيْتَ أَنْسِي مُخْدَجُ	وَيَا لَيْتِي أَعْمَى أَصْمٌ وَكَمْ أَكُنْ
وَلَا مَا التَّقَى تَدْرِي وَلَا مَا النَّحْرُجُ	فَوَاحِدَةٌ لَا تَعْرِفُ اللَّهَ رَبَّهُهَا
ثَوَائِبُ مِنْ مَرَّتْ بِسَهْلِهِ لَا تُعْرَجُ	وَتَائِبَةٌ حَمَقَاءُ رَعْنَا سَخِيفَةٌ
مُذَكَّرَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالتَّبَّيْرُجُ	وَتَائِلَةٌ مَا إِنَّ تَوَارَى بِثَوْبِهَا
مُفْرَكَةٌ هُوَ جَاءَ مِنْ نَسْلِ أَهْـوَجُ	وَرَابِعَةٌ وَرَهَاءٌ فِي كُلِّ أَمْرِهَا
ثَلَاثًا بَتَاتَا فَاشْهَدُوا لَا تَلْجُوا	فَهُنَّ طَلَقٌ كُلُّهُنَّ بَوَانِنٌ

فالشاعر هنا في حالة من الحزن الشديد، إذ ذكر الصفات القبيحة لدى زوجاته الأربعة اللاتي ندم على الزواج منهن، إذ ابتدئ بأولهن اسوء خلقاً وهي صورة للمرأة الغير النقية التي لا تعبد الله، فهي جاهلة بأمر الدين، لا تصلي ولا تصوم، ثم انتقل للزوجة الثانية الحمقاء التي لا تتمالك نفسها بكل الأمور رعاء سخيفة، والثالثة متبرجة للغاوية للزينة غير مستورة في ثوبها، هي صورة للانحطاط الأخلاقي، واخرهن ما كانت سيئة الخلق في أفعالها، خرقاء من نسل أخرق، وهذه الصفات القبيحة جاءت على هيئة عدّة صور لرسم قوام النصوص الأدبية ومثله نجده عند الشاعر أبو العلاء المعري يذكر صفات المرأة الزوجة (سيئة الخلق)، قائلا<sup>(١٢٣)</sup>:

(البيسط)

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَرَهَاءٍ قَائِلَةٍ	لِلزَّوْجِ إِنِّي إِلَى الْحَمَامِ احْتِجَا
وَهَمُّهَا فِي أُمُورٍ لَوْ يَتَابِعُهَا	كُسْرَى عَلَيْهَا، لِشَيْنِ الْمَلِكِ وَالتَّاجِ

فالشاعر هنا تداخل مع النص السابق في عرض صورة مشابهة الى صورة المرأة الفاجرة الخرقاء (ورهاء)، التي تتذرع بأمر شائنة يتعجب منها زوجها، وتضمّر في نفسها نوايا سيئة، فأبتدئ النص الشعري بلفظ (أعوذ)، دليل على غضبه من سوء اخلاق زوجته.

ونجد في الفصوص ايضاً صورة المرأة المخلّة بالعهد وغير العادلة في قول باهلة<sup>(١٢٤)</sup>:

(البيسط)

أَنَّ الْفِتَاةَ الَّتِي عَلَّقْتُهَا عَرَضًا	وَكُنْتُ أَتْرِكُ فِيهَا لَوْمَ مَنْ عَزَلَا
حَاسَتْ بَعْدِي وَخَانَتْني فَحَسْتُ بِهَا	وَخَنَّتْهَا وَكَلَانَا بَيْسَ مَا فَعَلَا

تناول الشاعر صورة جديد للمرأة يرسم فيها المرأة الخائنة العهد، وبيان خيبة الأمل التي كان يعلقها بحبيبته، ولا يسمح للناس أن تلومه فيها، فقد خيبت رجاءه وخانته، وهو مقابل ذلك فعل الخيانة بها ايضاً، فقد رسم الشاعر تحول زمني بين الالفاظ نتج عنه صورة كاملة لحبيبته الخائنة العهد. ومثله نجد عند الشاعر أبو العلاء المعري عندما تطرق في باب المرأة في اللزوميات، إذ قال<sup>(١٢٥)</sup>:

(الوافر)

وَمَنْ فَقَدَ الشَّيْبَةَ فَالْغَوَانِي  
هُوَ اجْرٌ فِي التَّيْقُظِ أَوْ عَوَاصِ

لَهُ عِنْدَ الْوُرُودِ مُصَرَّدَاتٍ  
وَفِي طَيْفِ الْكُرَى مُتَعَهَّدَاتٍ

الشاعر نقل الصورة ذاتها لبعض النساء المخلات بالعهد والوعد، فتداخل النصين في صورة واحدة، كلاهما ناقضات العهد، فرسم لهن وجهين فهن في حالة اليقظة هاجرات عاصيات للعهد والوعد، وفي الحلم حافظات له، فتحققت صورة بلاغية استعارية متأرجحة بين الشعور واللاشعور، والصورة هنا حصل فيها تحول زمني أيضاً، وهذا دليل على التأكيد على الصورة التي جاءت عليها المرأة.

وإذا تطلعتنا في كتاب الفصوص عن الرجل، نجد ورد على عدة صور تبرز فيها شخصيته، واعتداده بنفسه وشعره، ورحلاته، وكرمه، وشجاعته، واعجابه بمدوحه من الامراء، والوزراء وغيرها من الصور التي رسمها الشعراء للرجل، ونستطيع أن نلتصق صورة الرجل أبي النفس في شخصيته، ذلك في قول الشاعر حسان بن شرحبيل بن ذي مرحب الكندي، إذ كان نديماً لملوك حمير، يمدحهم ويذكر مآثرهم فقال فيهم (٢٦):

(الوافر)

تَعَلَّمَ يَا ابْنَ وَقَاصٍ بَأَنِّي  
وَأَنِّي حِينَ أُسَبِّحُ حَضْرَمِيَّ  
وَأَنَّكَ حِينَ تُسَبِّبُ أَعْجَمِيَّ

أَبِي النَّفْسِ فِي حَسَبِ نُضَارٍ  
مَنْ الشَّمِّ الْفَمَاقِمَةِ الْخَيْارِ  
لَأَقْسَالٍ وَمَنْ نَقَرَ شَرَارَ

الشاعر هنا يفخر بأحد ملوك بني حمير (قيس بن معد يكرب) (\*)، فقدم لنا شخصية الرجل الكثير الفضل، عزيز النفس، وهي صورة مميزة لرسم صفات الشخصية، ثم ينتقل ليصور النسب العريق الذي يفتخر به، إذ افتخر بأصله الحضرمي وصورة الافتخار تتجلى في كثرة الفضل على العكس من الاعاجم في الكرم. ونجد عند يزيد بن الحكم يفخر بقومه (٢٧):

(الطويل)

رَأَيْتُ سَخِيَّ النَّفْسِ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ

هَنِيئاً وَلَا يُعْطَى عَلَى الْحَرَصِ جَاشِعٌ

فالشاعر هنا رسم صورة للعطاء والكرم، فتداخل مع النص السابق لفظاً ومعنى، ليجعل فخره بقومه في كثرة السخاء والفضائل، وهي صورة تتداخل فيها النصين بألفاظ مع ما رسمه الشاعر من الفخر بقومه. ونجد مثل ذلك عند الشاعر كشاجم في إبراز شخصية الرجل بالفخر بنفسه وقومه إذ قال (٢٨):

(مجزوء الكامل)

شَهِدْتُ نَدَاكَ مَنْاسِبٌ

لِي فِي ثَرَى كِسْرَى صَرِيحَةٌ

وَسَجِيحَةٌ لِي فِي الْمَكَا

رَمِ إِنْ لِي فِيهَا سَجِيحَةٌ

وهذه صورة يبين فيها الشاعر الفخر بأصله، وبكرم أجداده الذي ورثه، وهي تتداخل مع ما بينه الشعراء في بيان صور العطاء والفخر بأنسابهم.

ومن الصور الشعرية التي وردت في كتاب الفصوص صورة الصديق، من خلال صورة واضحة من الواجبات تجاه بعضهم البعض، فقال الشاعر أبو عبد الله بن حمدان الخصبيني (٢٩):

(الطويل)

صَدِيقُكَ مَنْ يَأْتِيكَ فِي كُلِّ شِدَّةٍ

وَيَبْدُلُ فِيهَا نَفْسَهُ وَيَخَاطِرُ

فَأَمَّا إِذَا مَا كَانَ قَصْفٌ وَآدَةٌ

فَكُلُّ صَدِيقٍ مُسْرَعٌ وَمَبْـأَدِرُ

بين الشاعر صورة واضحة المعالم، من خلال العرض بصورة مباشرة عن الحديث تجاه الصديق الصدوق الذي يكون عوناً لصديقه في السراء والضراء، وعدد واجباته، فهو حاضر في كل شدة، و يجعل نفسه فداء

لصاحبه، فالشاعر اعطى للصدى صورته متكاملة عن المساعدة والعون في كل الأمور. ونجد الكثير من الشعراء قالوا شعراً في الصديق والصدقة وأولهم عناية في شعرهم ومنهم، الشاعر النابغة الذبياني، إذ يقول (٣٠):

(البيسط)

وَأَسْتَبِقُ وَذَكَ لِلصَّدِيقِ، وَلَا تَكُنْ قَتْباً يَعْضُ بِغَارِبٍ، مَلْحَاحاً

الشاعر هنا يبدأ نصه بفعل أمر (استبق)، يدل على الأقدام على الحفاظ على محبة الصديق، ناهياً عن التفريط به والالاحاح في استغلاله، وزاد ذلك الأمر توكيداً أنه شبه الشخص الذي يلح كأنه الرحل فوق سنام الجمل فيؤثر فيه من طول المشقة في السفر، فالشاعر رسم هذه الصورة المؤثرة، ليوضح أن وجه الشبه هو في الصديق الصبور الذي يحسن مرافقته في السراء والضراء، ويتحمل الشدائد من أجل تقديم العون والمساعدة. فتداخل النصان بأسمى المعاني التي جعلتهما لوحة متكاملة عن الصديق الصدوق. ومن النصوص الموجودة في الفصوص ما تحمل صوراً للرجل منها صورة الرجل في السياسة والحرب، قول لأبي الغمر (\*) عندما فرَّ من الحرب قائلاً (٣١):

(السريع)

لَسْتُ لَدَى الْحَرْبِ بِوَقْفٍ أَفِ إِذَا رَأَيْتُ الْحَرْبَ مِنْ فَرَسٍ سَخٍ  
وَلَا عَلَيَّ الْقِرْنَ بِعَطَافٍ يَخْرُفُ إِرْوَاحِي وَأَسِيْفِي  
خَذَرْتُ رَجُلِي أَيَّ خَذَرِافٍ

الشاعر هنا رسم صورة شعرية عبرت عن الواقع الذي عاشه، كونه هارباً فاراً من المعركة، والغنائم، وهو ليس من الطامعين بنهب المال في الحرب، لذلك لا يخافون العدو وجهه واسيافه، وقد يكون هذا الفرار بهيئة صورة صريحة معبراً عن حبهم في البقاء لأطول حياة ممكنة، وهو يفر فراراً سريعاً إذا رأى الحرب من مسافة بعيدة، وقد أخذ الخصم هذه الصورة أنه خزي وعار يندى له الجبين وهذا ما نجده عند عامر بن الطفيل في قوله (٣٢):

(الطويل)

لَقَدْ عَلِمْتُ عَلَيَّ هَوَازِنَ أَنْتِي أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي حَقِيقَةً جَعْفَرُ  
وَقَدْ عَلِمَ الْمَرْثُوقُ أَنَّي أَكْرَهُ عَشِيَّةَ فِيهِ الرِّيْحُ كَرَّ الْمُشْهَرُ  
إِذَا أَزُورُ مِنْ وَقَعِ الرَّمَاخِ زَجْرَتُهُ وَقَلْتُ لَهُ ارْجِعْ مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرِ  
وَأَنْبَأْتُهُ أَنَّ الْفِرَارَ خَزَائِيَّةٌ عَلَى الْمَرْءِ مَا لَمْ يُبَلِّ غَدْرًا فَيَعْدُرُ

ونجد عند الشاعر نفسه بنقل لنا صورة الرجل الصلب الذي لا يفر من الحرب حتى وأن توفرت له أسباب التخلف عنها، ومنه قوله في الدفاع عن رجل اسمه سميطاً (\*)، وكيف صبر على شدة الحرب ونيرانها، فقال (٣٣):

(الطويل)

رَهْبْتُ وَمَا مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ أَجْرَعُ وَعَالَجْتُ هَمًّا كُنْتُ بِالْهَمِّ أَوْلَعُ  
وَكَيْدًا إِلَى أَنْ خَالَطَ الشَّيْبُ مَقْرَقِي وَالْبَيْسَنِي مِنْهُ التَّغَامُ الْمَنْزَعُ  
وَلَوْلَا دِفَاعِي عَنِ سَمِيطٍ وَكَرْتِي لَعَالَجَ قِدًّا\* قَلْبُهُ يَنْقَعُ

فهو يرسم لنا صورة المقاتل الكبير ذو الشبيبة البيضاء، الذي لا يفر من الحرب على الرغم من كبره، واطلق الشاعر صوراً بلاغية ليرسم لنا صورة الرجل، فكنى عن الشيب الأبيض بالتغام وهو شجر أبيض يشبه به الشيب، له ثمر أبيض كالقطن.

ثم تنتقل لصورة أخرى للرجل في كتاب الفصوص هي صورة الرجل الذي ينقض العهد، نجدها في قول القاضي التنوخي، إذ قالها يذكر صديق له لم يوف بعهد الذي قطعه له قائلا<sup>(٣٤)</sup>:

(الطويل)

أَبَا حَسَنَ إِنَّ الرِّتَانِمَ إِنَّمَا تَذَكَّرُ بِالْوَعْدِ الْعَبَامِ الْمُعَمَّرَا  
وَأَمَّا الَّذِي عَيْشَاهُ حَشْوُ فُؤَادِهِ فَلَيْسَ بِمُحْتَاجِ إِلَيَّ أَنْ يُذَكَّرَا  
ومنه قول للشاعر كعب بن زهير<sup>(٣٥)</sup>:

(الطويل)

وَقَوْمُوا فَاسُوا قَوْمَكُمْ فَاجْمَعُوهُمْ وَكُونُوا بَدَأَ تَبْنِي الْعَلَا وَتَدَافِعُ  
لِشْتَانٍ مَنْ يَدْعُو فَيُوفِي بَعْدَهُ وَمَنْ هُوَ لِلْعَهْدِ الْمَوْكِدِ خَالِعُ  
إِيكَ أَبَا نَصْرٍ أَجَازَتْ نَصِيحَتِي تُبْلِغُنِي عَنِّي الْمَطْيُ الْخَوَاصِعُ

الشاعر بين صورتان جاء عليهما الرجل، منه من يوفي العهد ومنه من ينقضه، وبينهما شتان، فالعهد وديعه على صاحبه، وعليه أن يوفيه من غير تكدير، لأنه من مكارم الأخلاق يرفع من شأن صاحبه. ونجد صورة الرجل البخيل، قد شغلت الكثير من الشعراء فتناولوها في أشعارهم، ونجد في الفصوص قول للحطيئة في قوله<sup>(٣٦)</sup>:

(الوافر)

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ فَتَرَكْتُمُونِي لِكَلْبِي فِي دِيَارِكُمْ عَوَاءُ

الشاعر هنا جعل صورة الجوع وسوء الحال في مقام الرجل الجائع، فهو يعاتب الذين تركوه بلا طعام لشدة بخلهم، وشبه نفسه بالكلب الجائع الي يعوي من شدة جوعه وحزنه، فصورة الكلب التي اوضحها الشاعر وهو يعوي، هي الصورة نفسها للرجل الجائع. ومن هذه الصورة نجد مثلها عند دعبيل الخزاعي يذم الرجل البخيل، قائلا<sup>(٣٧)</sup>:

(الطويل)

رَأَيْتُ أَبَا عَمْرَانَ يَبْدُلُ عَرَضَهُ وَخُيِّرْتُ أَبِي عَمْرَانَ فِي أَحْرَزِ الْحَرِزِ  
يُحْنُ إِلَى جَارَاتِهِ بَعْدَ شَبْعِهِ وَجَارَاتُهُ عَرَّثِي تُحْنُ إِلَيَّ الْخُبْزِ

الشاعر هنا بهجو شخصاً عرف بالبخل (أبا عمران موبس بن عمران)، فهو جعل صورة البخل في شخصه صورة قبيحة تعج بالجشع والتطفل الى جاراته الجياع، وطعامه في حجره لا يظهره من شدة البخل. أما صورة الشيب فنجد قد كثر ذكرها عند الشعراء، لأنها تعبر عن مرحلة زمنية من حياتهم، فنجد كتاب الفصوص أقوال كثيرة منها قول أبو الفتح كشاجم<sup>(٣٨)</sup>:

(الوافر)

طَرَبْتُ إِلَى الْمَرَاةِ فَرَوَعَتْهُ يَ طَرَبْتُ إِلَى الْمَرَاةِ فَرَوَعَتْهُ يَ  
فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزَّتْ مِنْهُ هَابِي إِلَى الْمُقْرَاضِ مِنْ حُبِّ النَّصَابِي  
وَأَمَّا شَيْبَةٌ فَعَقَوْتُ عَنْهُ لَتَشْهَدُ بِالْبِرَاةِ مِنَ الْخِصَابِ  
فِيَا عَجَبًا لِدَلِكِ مِمَّنْ مَشِيْبِ أَقَمْتُ بِهِ الدَّلِيلَ عَلَى الشَّبَابِ!

الشاعر هنا يذكر صورة الشيب في أبهى صورة حسية، لأنه ابدى أن الشيب جعله يتألم من الصدود والهجران، لكنه قسم نظرته الى الشيب الى مراحل زمنية كل مرحلة تمثل تحول زمني لمعالجة أمور الحياة، ثم حاول الشاعر أن يجسد هذا التحول الى لوازم الصورة الزمنية لتمثل نقیض صورة الشيب في (النصابي، الشباب)، ليجعلها في صورة متكاملة من المعاني.

ونجد صورة الشيب عند الشاعر عند دعبل الخزاعي قد رُسمت بصورة رائعة، في قوله<sup>(٣٩)</sup>:

(الطويل)

لقد عَجِبْتُ سلمى وذاك عَجِيبُ

رأت بي شيباً عَجَلْتَهُ خُطوبُ

وَمَا شَيْبَتِي كِبَرُهُ غَيْرَ أَتْنِي

بدهر به رأسُ القَظِيمِ يَشِيبُ

الشاعر هنا يشكو ما مرَّ به من شدة الأسى والحرمان التي لو مرت على طفل صغير لشاب شعره، وهذا ما ابتداء به من التعجب الذي ابتدته سلمى، وجعل هذه الصورة المعبرة عن ما مر به من حرمان نتیجتها الشيب الذي ملئ رأسه، فالشاعر هنا يبرر لنفسه على أن شيبته ليس بكبير في عمره وإنما هي نتاج مراحل الزمن القاسية، لذلك يعدُّ ذكر الشيب في الشعر هو رثاء للشباب الذي فقده.

هوامش المصادر

- ١- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور: ٥٠.
- ٢- كتاب الحيوان، الجاحظ: ٥٥٧.
- ٣- كتاب اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ٢٦.
- ٤- كتاب نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ٢٠.
- ٥- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: ١٠.
- ٦- الصورة الفنية في شعر الزمخشري، سحر محمد علي محمد صالح احمد، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، ٢٠١٢م.
- ٧- الصافات: ٤٨-٤٩.
- ٨- النور: ٣٩.
- ٩- الصورة الشعرية، سيسل دي لويس، ترجمة، احمد نصيف الجنابي، مالك ميري، سلمان حسن ابراهيم: ٢١.
- ١٠- كتاب التفسير النفسي للأدب: ١٦١.
- ١١- مدخل الى عالم الجمال الأدبي، عبد المنعم تليمة: ٦٣-٦٤.
- ١٢- ديوان كثير عزة: ٣٦٩.
- ١٣- ديوان امرئ القيس: ٦٨.
- ١٤- الرحمن: ٧٢.
- ١٥- كتاب الفصوص، صاعد البغدادي: ٨٣/٥.
- ١٦- وصية أم من العصر الحديث لأبنتها. قصيدة" اخلاقيات الزواج"، الشاعرة لورا الأسيوطي، د. شاذلي عبد الغني إسماعيل، ٢٠١٦.
- ١٧- ديوان ابن مقبل: ١٧١.
- ١٨- المعجم الوسيط: ٦٢٥.
- ١٩- كتاب الفصوص: ١٣٣/٤.
- ٢٠- معجم لسان العرب، ابن منظور: ٥٢٥.
- ٢١- دراسات في الشعر العربي المعاصر، د. شوقي ضيف: ٢٩٩-٢٢٠.
- ٢٢- ديوان بشر بن خازم: ٨٠-٨١.
- ٢٣- كتاب بهجة المجالس وانس المجالس، ابن عبد البر: ١٨١/١.
- ٢٤- ديوان أبو العلاء المعري: ١٩٤.

- ٢٥-كتاب الفصوص: ٤/ ٢٣٤.
- ٢٦-اللزوميات، أبو العلاء المعري: ١/ ١٦٦.
- ٢٧-كتاب الفصوص: ٤/ ١٤٠-١٤١.
- ٢٨-خزانة الادب، عبد القادر بن عمر البغدادي: ١/ ٥٤٥.
- ٢٩-كتاب مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش: ٢/ ١٧١.
- ٣٠-ديوان كشاجم: ٧٥.
- ٣١-الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصبي: ٣٣١.
- ٣٢-ديوان النابغة الذبياني: ٧٧.
- ٣٣-سير اعلام النبلاء، الذهبي: ٤٦٦٩.
- ٣٤-ديوان عامر بن الطفيل: ٦١.
- ٣٥-ديوان كعب بن زهير: ٤٢-٤٣.
- ٣٦-ديوان الحطيئة: ٥٣.
- ٣٧-ديوان دعبل الخزاعي: ١٦٧.
- ٣٨-ديوان أبو الفتح كشاجم: ٣٨.
- ٣٩-كتاب شعر دعبل الخزاعي، د. عبد الكريم الأشر: ٥٢-٥٣.

